ترجمة وتحليل :

الخـــلود (*)

لشاعر الحب والجمال لامرتين

ترجمة الأستاذ صبحي إبراهيم الصالح

- ١ -

كان لفاجعة لامرتين في حبيبته (جوليا) — وهي موضوع قصة (رفائيل) — أثر عظيم في إرهاف حسه، وإخصاب خياله، وتفتيق عبقريته : فله فيها مراثٍ جياد تفور بالعاطفة الجياشة، وتزخر بالتصوير البارع، وتمتاز بالنفس الطويل.

ولا ينسى مطلع على كتاب (من الأدب الفرنسي) تلك اليد البيضاء التي أسداها إلى أبناء هذا الجيل أستاذنا الجليل الزيات يوم نقل إلى العربية بقلمه الرشيق، وحسه الدقيق، وأسلوبه الذي لا يجارى، قصائدَ (البحيرة، والوحدة، والوادي، والمساء، والذكرى، والدعاء) فأطلعنا على نفسية شاعر عظيم، وعلمنا كيف نترجم للخالدين ...

أما القصيدة التي نقدمها اليوم إلى الرسالة — بعد غيبتنا الطويلة — فهي إحدى مراثي لامرتين لحبيبته، وهي فياضة بصوره وأخيلته، تصف بلباقة ما كان يكظمه من الحزن، وتفصّل بأسلوب شعري علاقة الروح بالبدن، وتقوّي في الفطرة السليمة عقيدة (الخلود).

* * *

نظم الشاعر هذه القصيدة سنة ١٨١٧ بعد أن مضى زمن قصير على موت جوليا وأفول شمسها، وكان الحزن لا يزال يلوع قلبه، ويحطم أعصابه؛ فلا غرو إذا كانت نغماته في كل فقرة تنطلق كالزفرات وتوشك أن تسكب الدموع؛ ولا بدع إذا شرع — في استهلال قصيدته — يصور فكرة الفناء بأسلوب يثير الخشوع.

فالشمس ليست عنده آية النهار ومصباح الوجود، وإنما هي شمس أيامنا السريعة التي ما تكاد تشرق حتى تؤذن بالغروب؛ فتشحب في صباحها قبيل ضحاها، وتستبدل اصفرارها بسناها، وتأفل متعثرةً بخطاها، وتضنّ على جباهنا الكليلة الفاترة، بأشعتها المرتجفة الحائرة، ثم تمر بها علينا باهتةً مائلةً تهاوت بين يدي الليل الهاجم، فتتوالد في عقبها ظلمات حوالك يولي منها كل شيء فراراً، ويمتلئ من سوادها رعباً، وينمحي في طياتها ذعراً ورعباً.

« إن شمس أيامنا تشحب مع صبحها المتنفس!
وعلى جباهنا الكليلة تلقي وهي تتردد
أشعة مرتجفة تقاوم الليل المعسعس :
فيولد الظلام، ويموت النهار، وينمحي كل شيء ويتبدد! »

وجدير بالإنسان الذي وُهب حساسةً وشعوراً أن يتمثل فكرة الفناء كلما رأى مغرب الشمس، وحضر مأتم النهار، وشهد مولد الليل! وجدير به أن يقشعرّ جلده ويلين قلبه لهذا المنظر الخاشع المؤثر، وأن يوجس في نفسه خيفةً من ظلام الدجى وأن يتلمس مواطئَ قدميه حيناً أخرى، فإذا أحس أنه على شفا حفرة أو لدى شفير مهوى، تراجع منتفضاً ناكصاً على عقبيه، وظل متراجعاً حتى يثوب حسه إليه.

ولقد يسمع أثناء نكوصه وانقلابه ألحاناً تشكو، وأنّاتٍ تبكي، وزفرات تتصاعد حرّى، وأنفاساً تختنق كرباً، ونواقيس تنتحب ولهى، وأجراساً تعلن نعياً — فتلك أصوات تعزي العشاق في فقد أحبابهم، والإخوان على رحيل صحابهم، يوم جثوّهم على مُمَرّ الموت لا يتزحزحون، وتشبثهم بأقدامها لا يتحولون. فلتمشِ الرعدة في أوصال الإنسان إذا ما سمع هذه النغمات، فإنها — مهما بعدت عنه — نذير الفناء، يعكر في القلب صفو الهناء.

« ما أحرى الإنسان أن يقشعر لهذا المنظر ويلين
ويتراجع منتفضاً من مهاوي الشقاء،
ثم يرتعد حين يسمع لحن الموت الحزين
الذي يوشك أن يتعالى في الفضاء،
ويحتبس الأنفاس من عاشقة ولهى أو إخاء حيران

(*) هذه القصيدة هي الرابعة في ديوان (التأملات الشعرية)، وهي من مختارات لامرتين وروائعه.

متشبثين بأقدام السرير الرهيـــب ،
أو ناقوساً منتحباً يُنبىء صوته المهابْ
أن شمس بائس شـــق آثرت المغيب ! »

أما وإن هذه الشمس الغاربة الخليقة بتحية الشعراء ، فإنها رمز حزن لاحتضار بائس يستحق العزاء ! فليضع الشاعر يده على ما يكن فى الموت من أسرار ، وليسمّ المحتضر (فدية) تستغفر بها السماء من ذنوب الأرض وخطاياها ؛ وليناج روحه مخففاً عنه ما قشيه من سكرة الموت ورهبة الحساب ، غابطاً إياه على رحيله من دار الفناء إلى الملأ الأعلى ، حيث تتغير حياته ، وتتبدل عاداته ؛ فلن يحمل سيفه الصقيل ليطيح بالرءوس ظلماً وعدواناً ، ولن يقطب جبينه ويحدق بصره ليناضب إنسـاناً ، ولن يطلب الشر ويسعى إليه ، فيلهمه الله كل معانى الخير ، وسيجعله ملكاً رحيماً يضيء بنوره ما حوله ، ويحمل بيده مشعلا قدسياً يشع منه بريق الرفق والحنان .

« سلاماً أيها المحتضر ! إنك لم تبدُ لحظة فى دنياك
– يا فدية السماء – بهـــذا المنظر المخيف
الذى غشّاك به ذعرُك أو خطاياك .
لن تشهر ذراعاك أبداً ســـيفك الرهيف ؛
ولم يمُدّ لك جبين عبوس ، ولا بصر حديد :
فيلهمك الإله الرحيم مواساة الضعفاء .
وأنت لا تبيد ... بل ستنطلق فى عالم الخلود ،
حاملاً بيدك مشعلاً قدسياً يا ملك السماء ! »

طوبى لروح المحتضر ! فإن مآله إلى عالم الأنوار الشعشع إلى الأبد ، بينا الأحياء فى دار الفناء يقضون نصف حياتهم بلا نور ؛ فتى وفد الليل هجعت العيون ، وانطفأت الأنوار ، وامتد الظلام .

طوبى لهذا الروح ! فإنه سيكون أحد هذه الأرواح العلوية التى تحمل شاعلها القدسية ، وتنزل من السماء إلى الأرض لتسور بيوت النائمين ، فتدنو من فراشهم ، وترقد إلى جانبهم ، ثم تسبح بهم فى بحر من نورها الأزلى ، وتغرق أجفانهم فى موج من ضيائها الأبدى ؛ وتريهم فى منامهم أخيلة رائعة ، وأضواء ساطعة ؛ وتريهم الليل نهاراً ، والسراب أنهاراً ؛ وتريهم النائمين بين القبور يفتحون بيد الأمل أبواب الخلود ، ويدخلون بسلام آمنين

« وإذا أحيل بين بصرى الحسير وبين النور
أنبلك تغرق جفنى بنهـــار أصفى وأزهى ؛
فيفتح لى الأمل — وأنا قريب منك هائم بين القبور
متمم بالإيمان — عالماً أسمى وأبهى ... »

وهذا العالم السرمدى الذى تنعم به الأرواح فى منامها ودّ الشاعر لو يسمو بنفسه إلى آفاقه ، لأنه الوطن الأول الذى نزح الإنسان منه فينبغى أن يعود إليه ؛ ولكنه يرى أغلال حسه وقيود بدنه تمونه عن الطيران ، فليست يداه جناحين فيحلق بهما فى السماء ، وإنما هما وسائر أعضائه سجن ضيق يتحرك فيه بقدر ، ويدور منه على حذر . فمن له بتحطيم أغلاله ، وفك قيوده ، وفتح سجنه ، وجعله طائراً يطير سوى هذا الروح الطليق الذى يمضى فى اللانهاية حيث يشاء ؟

فليستغث به علّه يُصرخه ، وليستعجله إلى نجدته قبل أن يقذف بنفسه إلى العالم المجهول ، ويمر فى غمرات الحيرة والذهول .

« تعـال إذن ... تعـال حطم أغلال حسى !
ثم افتح سجنى وأعرنى جناحيك فأطير على رسلى !
ما يبطىء بك ؟ أسرع فإنى قاذف بنفسى
إلى هذا العـالم المجهول فابقى وأصـلى ... »

ويخيل إلى الشـاعر — وما ذاك منه سوى خيال — أن روحا لبى نداءه ، فحطم أغلاله ، وأطلقه من سجنه ، وألقى فى روعه أنّ فى مكنته أن يطير ؛ فينظر فيما حوله حائراً شروداً ، ويرى أنه خُلق خلقاً جديداً ؛ فتعجب نفسه من نفسه ، ويقارن بين حاضره وأمسه . ويتساءل عن الذى فك قيود حسه ، ويستفهم من منقلبه ومصيره ، ومن سر بعثه ونشوره . ويستعلم من الضيف المجهول الذى أجابه إلى وجيته ، ومن مثواه العلوى الذى كان فيه ومن غرضه حين سعى إليه .

« من حطم أغلالى ؟ من أنا وما ينبغى أن أكون ؟
إنى أموت ... ولا أفهم سر بعثى ونشورى ...
عبثاً أسألك أيها الضيف المجهول والروح الأمين !
أين كان مثواك قبل أن ترد حياتى وشعورى ؟ »

(يتبع) صبحى ابراهيم الصالح